مثقفون وسياسيون عراقيون: سماح ادريس ضد العراق ويتكلم بلسان السياسيين

المدى الثقافي

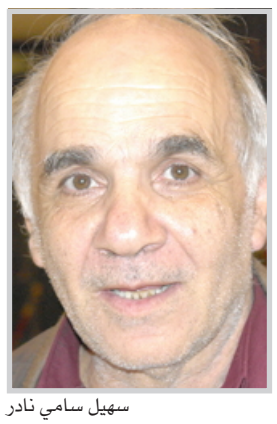
سهيل سامي نادر

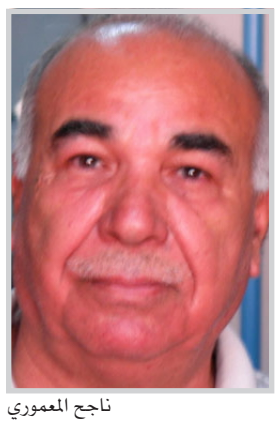
ناجح المعموري

كاظم الحجاج

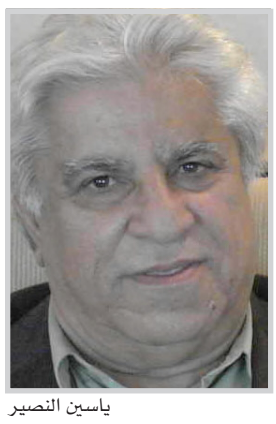
ياسين النصير

اتسعت بشكل لافت دائرة الاهتمام الإعلامي العراقي بتداعيات الدعوى القضائية التي رفعها رئيس مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون فخري كريم ضد الدكتور سماح ادريس اثر المفتتح الذي كتبه الاخير في مجلة الاداب وطعن فيه الثقافة العراقية وشخص فخري كريم؛ فقد واصل المثقفون العراقيون والسياسيون والنشطاء في منظمات المجتمع المدني التوقيع على بيان تضامني ردا على الحملة الاعلامية التي تروج لها جريدة الاخبار اللبنانية تحت مسمى (ميثاق شرف بين انصار الكلمة الحرة).

البيان العراقي المناهض لوثيقة الاخبار اللبنانية تعاضدت فيه تواقيع جديدة لسياسيين وشخصيات اجتماعية مرموقة في ظاهرة تعد الاولى من نوعها منذ عقود والاكثر اثارة. جاء ذلك بعد ان صعّد الاعلام العراقي، بتعدديااته المختلفة، من دفاعه عن الثقافة العراقية الجديدة باعتبارها التكوين الاكثر اصالة والاشد دلالة على وحدة النخب العراقية المثقفة ووطنيتها. واعاب الاعلام على المتضامنين مع الدكتور سماح ادريس حشر الثقافة العراقية في مضيق مناصرة غير موضوعية افضت بهم الى انتقاص غير مبرر لا يعبر عن غيرة حقيقية وانما عن تعصب سياسي غير بناء مدفوع بأنوية معادية. وشكك المثقفون العراقيون بدوافع الحملة الاعلامية التي تديرها جريدة الاخبار اللبنانية وعدوها نابعة من تعصب سياسي يرتبط بوشائج مع النظام العراقي السابق.

هذه القراءة دفعت اكثر من ١٠٠ برلماني عراقي إلى التوقيع على بيان المثقفين كما دفعت المئات من النشطاء في مجالات المجتمع المدني ورؤساء العشائر والوجهاء إلى الحاق تواقيعهم بالبيان فيما ذهب كتاب إلى وصف حملة الاخبار: بانها خروج عن المسار المهني لهذه الصحيفة والعمل على خلق ازمة لبنانية عراقية من نوع خاص.

الاستياء الثقافي امتد الى الكتّاب الكرد حيث نظموا احتجاجات بمختلف الوسائل، واصدروا بيانات باللغة الكردية ايدها المئات من المثقفين الذين اطلقوا حملة تواقيع واسعة شملت اقليم كردستان في سابقة تعد الاولى.

البيان العراقي اورد نقاط اختلاف جوهرية حيث اوضح أن هذا السلوك الرامي إلى تشويه صورة الآخرين ووصم سمعتهم والنيل من كرامتهم لا علاقة له إطلاقاً بـ (الاختلاف في الرأي والمعلومة والدليل) وإنما يدخل في باب الانتهاكات التي لا ينبغي السكوت عنها. ولا مكان لحسم مثل هذ الخلاف، سوى ساحة قضاء عادل يستند إلى القانون الذي يحفظ للناس كرامتهم مثلما يحفظ لهم أمنهم. واضاف البيان : إن محاولة مدبجي (البيان –وثيقة الشرف) تصوير الشتائم والاتهامات والتلفيقات على إنها صورة للاختلاف في الرأي والفكر، هي محاولة سيئة للانحطاط بخلافات الرأي والفكر إلى هذا الدرك، كما هو محاولة مريبة لتوفير غطاء نظري وتشريعي يعطل القانون ويسمح بانفلات أخلاقي يكون مجاله الإعلام ووسائل الثقافة. وهو انفلات يحتاج إليه دعاة الحروب الاهلية والانقلابات وسدنة الانظمة الاستبدادية بواجهاتها المختلفة ومرتزقة العمل الثقافي والإعلامي ومأجوروه وفاقدو الحجة الفكرية والثقافية والسياسية.

المجلس العراقي للسلم والتضامن من جهته اصدر بيانا شديد اللهجة قال فيه: ليس بالجديد على تجربة شعبنا بنخبه الثقافية والفنية وهي تستعيد ألقها من جديد بعد ان تعرضت لعقود من التشويه والتزوير والمحق الفكري والسياسي على ايدي جلاديه ان يتعرض الى الاتهامات الجاهزة من قبل اولئك الذين تعرضت مصالحهم وامتيازاتهم للزوال بانتهاء حقبة مظلمة لم تقدم غير الدماء وسلب الحريات والتجويع والحروب التي قادت الى الاحتلالات المعروفة. الجديد في ذلك ان ينبري عدد من النخب لتوقيع "ميثاق شرف بين انصار الكلمة الحرة" تطالب المعتدى عليه كي يتنازل عن حقه القانوني في الدفاع عن النفس الذي اقرته الشرائع المختلفة، وحقوق الانسان وكأنما يراد لشعبنا ان يذعن ولمسيرته ان تتوقف وللذين ينهشون من لحومنا ان يستمروا. ان شعبنا الذي عاش مأساة الدكتاتورية لن يرضى ان تملي عليه ذيول الاستبداد من جديد رؤياها المضللة وزيف تصوراتها وتحت شعارات معروفة لتدمير الروح العراقية.فالثقافة التقدمية والقوى الوطنية ستطوي صفحة سوداء من تاريخ ملتبس بالعنف والضلال، لانها مصممة على بناء وطنها المنشود المتحرر من كل اشكال الاحتلالات الصدامية والاجنبية وهي لن تنتظر طويلا فستستمر باقامة مهرجاناتها الثقافية ومسارحها وفنها وحلمها في خلق تجربة بناءة فريدة تستعيد فيها تاريخها المجيد.

القنوات الفضائية العراقية افردت تقارير اخبارية مطولة وكرست طاولات مستديرة لمناقشة قضية استهداف المثقف العراقي فيما اسمته (استبيان حقائق) حيث اجمع المتحلقون حول تلك الطاولات على ان حملة جريدة الاخبار اللبنانية جعلت المثقف العراقي ينتبه ويتحرك مدافعا عن هويته الفكرية واصالة انتاجه.

وفي السياق نفسه نقلت القناة العراقية من بيروت تفاصيل غياب سماح ادريس ومحاميه عن الجلسة القضائية فيما اجرت قناة الحرية متابعات مماثلة واستفتت شخصيات مختلفة وعرضت، اكثر من مرة، لقاءات اجرتها فضائيات عربية فضلا عن التغطيات التي اجرتها الصحف البغدادية وتناولت على صفحاتها الثقافية وملاحقها الادبية مقال سماح ادريس وحملة جريدة الاخبار. كما هاجم كتاب ما تروجه بعض المواقع الالكترونية التي بنى ادريس حججه على ما ينشر فيها ومنهم القاص عبدالستار ناصر الذي رد على مقال غير مذيل بتوقيع نشره موقع البديل العراقي فضلا عن عشرات المقالات التي هاجمت سماح ادريس حيث ذهب الكاتب ناجح المعموري الى ان ادريس اعلن عن موقفه ضد العراق وانه يتكلم بلسان السياسيين. اما الكاتب كاظم حبيب فقد قال عن ادريس انه يجسد حقداً وكراهية غير معهودتين في إنسان أديب ورئيس تحرير مجلة الآداب التي يفترض أن تدعو إلى المحبة والوئام والاحترام المتبادل واحترام حقوق الإنسان واحترام العاملين في مجال الثقافة والإعلام .

ومن جهته كتب الاديب والاعلامي سهيل سامي نادر معلقا: في الحقيقة أرى أن صاحب نقد الوعي النقدي كتب ما كتب ليفتح معركة على طريقة الصحافة الفضائحية، مسقطا شظايا المعركة السياسية الاصلية القائمة في لبنان والمنطقة بكل امتداداتها في العراق المحتل على فخري كريم . إنه ببساطة كتب تحت ضغط السياسة نص سباب وتخوين، ثم راح يحمي نفسه بحملة ميثاق شرف.

اما كاظم الحجاج فقد كتب تحت عنوان (لانهم يكرهون العراق يا عبد الستار):منذ مطلع الخمسينيات تحديداً، كانت مجلة (الآداب) البيروتية هي المنبر الاول والمفضل للادباء والكتاب والمثقفين العراقيين الرواد واللاحقين على حد سواء. ويومها كان العراق عضوا رئيساً في (حلف بغداد) ويومها كانت بغداد الملكية متهمة بالعمالة للانكليز.. بل كان العراق محتلا اصلا وفصلا. لكن لم يعان الكتاب والادباء والمثقفون العراقيون وهم تحت الاحتلال من قيود النشر في (الآداب) ولا في غيرها كونهم عملاء للمحتل.. كما لم يصل عداء العروبيين لملوك العراق المحتل- زمانذاك- ولوزرائه واحزابه ولمجلس نوابه، ومن ثم لشعبه كله، إلى درجة العداء التي هي عليها الآن، (لن نسأل: لماذا؟!). لكن موقف (الآداب) ومعها التيار القومي والعروبي قد تبدل عدائياً بعد ثورة تموز ١٩٥٨ يوم تخلص العراق من الاحتلال البريطاني ومن حلف بغداد، بل حتى خروج الدينار العراقي من دائرة الاسترليني. ويتفاقم العداء العروبي (أدبيا) في مؤتمر الادباء العرب، الذي انعقد في الكويت، حيث هوجم الوفد العراقي من قبل الادباء القوميين العروبيين اياهم علما ان الوفد العراقي كان برئاسة (الجواهري) الذي كان رمزا للوطنية العراقية والعربية على السواء. (ولم يكن العراق محتلا). وكان احتفاء (الآداب) الشهير بشاعرنا الكبير (البياتي ليس لانه صار كبيرا فجأة عند (الاداب) بل لانه (استعاد وجهه العربي). بعدما كان وجهه اعجميا- شعوبياً- ماركسيا!.. واليوم كذلك يقف الدكتور سماح ادريس مع مومياءات (الامة) التي هي من المحيط الهادر حتى الخليج الثائر! يقف مع خير الدين حسيب ومعن بشور ومع (مشروعهم) اللغوي الانشائي- الذي فشل منذ نصف قرن واضاع فلسطين إلى الابد. يقف معهم كي يشتموا العراقيين وأدباءهم حصراً.

فخري كريم الذي اكتفى بقطر الدعوى القضائية الشخصي واخرجه الاعلام العراقي من دائرة القضية العامة ظهر على صدر صحيفته (المدى) ناعيا مؤسس الاداب سهيل ادريس حيث قال: ان الثقافة العربية فقدت احد رموز التجديد فيها من خلال منبر الاداب التي كان لها خلال مدة ترؤسه دور متميز في اثراء المشهد الثقافي بقيم الحداثة والتجديد .

رحيل الاديب الكبير ادريس الاب جدد قضية مقال ادريس الابن في الصحافة العراقية ووسع من دائرة الاهتمام العام بها فقد كتب الناقد ياسين النصير قائلا: من المستغرب ان لا يكون سماح إدريس مثل ابيه يوم وقف طيلة فترات طويلة ضد الثقافة المعطلة للنهضة الفكرية، فجند الآداب لهذه الحركة.

وتابع النصير: نستغرب تماما أن يكون موضوعه هجوما على اللبراليين العرب في مرحلة نهوض قوى ثورية جديدة مغايرة للخطاب القومي.. قوى تتعايش مع حركات العالم وقواه الجديدة بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي.. قوى تتلمس طريقها وسط ألغام فكرية كثيرة تبثها اميركا واسرائيل من أجل تمرير خطابهم الفكري ومشروعهم الصهيوني على المنطقة. ففي الوقت الذي نحتاج فيه إلى لجم إيران من اللعب الفوضوي في المنطقة نجده يشن هجوما على الحريري وعلى لبنان وعلى العراق والثقافة العراقية وعلى الشخصيات الوطنية في حين يتجاهل دولا ومنظمات ثقافية وصحفية طبلت للمشاريع التي وقعت معاهدات كامب ديفد واسبانيا وغيرها!.

اما الكاتب الساخر وجيه عباس فقد كتب متهكما: الآداب البيروتية صفة أخرى لواقع عربي مأزوم يريد أن يلتصق بالعقل العربي خارج منطقة الرحم، لهذا لا بد من ان تكون الولادة مشوّهة، لكن صاحب الحي اللاتيني أقنعني بأن النار تخلّف رماداً حين أسند هذه المؤسسة إلى ولد عاق من أبناء الثقافة البيروتية.

لسماح إدريس حق الكلام، وللآخرين حق الرد

حسين كركوش

من حق سماح إدريس أن يتحدث ، لكن الآخرين أيضا من حقهم أن يردوا. ربما كانت رواية (أصابعنا التي تحترق) المنشورة عام ١٩٦٢ ، هي التي يتحدث فيها د. سهيل إدريس ، مؤسس دار الآداب وناشر مجلة الآداب ، عن دور القراء "العراقيين" في إسناد الثقافة العربية والمساهمة في ديمومتها. وإذا لم تخذلني ذاكرتي ، فأنه في تلك الرواية ذاتها ، التي هي أشبه بالسيرة الذاتية ، سوية مع روايات (الحي اللاتيني) ١٩٥٣ و(الخندق العميق) ١٩٥٨ ، نجد كيف أن بطل الرواية (ناشر لمجلة) ، ولكي يتفادى مقص الرقيب العراقي في الخمسينيات من القرن الماضي ، يضطر إلى إصدار عدد "خاص" من مجلته للقراء العراقيين. وتبرير ذلك هو ، أن المجلة ستعاني من صعوبات مالية حقيقية إذا هي ظلت ممنوعة من الدخول إلى العراق وفقدت السوق العراقية.

بالطبع، المثقف العراقي ليس مجرد مستهلك، "يجتر" ما يكتب في مصر ويطبع في بيروت، تلك كانت شتيمة ثقافية (سنوبيزمية) جاءت إلى "الأطراف" من "المركز". المثقف العراقي "ولود"، وظل "يلد" الجديد دائما وأبدا. ويكفي أن نراجع فهرس (الآداب) نفسها، منذ لحظة صدورها حتى الساعة، لكي نجد مصداقا لما نقول.

مجلة (الآداب) أغنت الثقافة العربية عموما، وظلت على الدوام صرحا ثقافيا راقيا وشامخا، وبقدر ما أغنت الآداب الثقافة العربية، فأن المثقفين العراقيين أغنوا الآداب وساهموا في تشييد صرحها، شأنهم شأن زملائهم في باقي أنحاء العالم العربي، إن لم يكن أكثر.

ولعل سماح إدريس لا يزال يتذكر تلك الوجوه العراقية التي كانت تفد إلى مكاتب ومسكن أبويه في بيروت، عندما كان هو لا يزال طفلا يدرج أمامهم.

والمثقفون العراقيون الذين دعموا مجلة الآداب منذ صدورها عام ١٩٥٦، وكانت لهم فيها صفحات عامرة، هم أنفسهم الذين يواصلون عطاءهم الإبداعي الآن داخل العراق وخارجه. الأمر لم يختلف. الذي اختلف هو الزمن، الذي جعل الأجيال الجديدة ربما أكثر كفاءة وأكثر قدرة على نقد (نقد الوعي "النقدي").

إذن، ما الذي استجد حتى يكافأ المبدعون العراقيون بإطلاق تسمية "كتاب المارينرز" عليهم، وتوصد أمامهم أبواب الاتحادات الثقافية العربية، وتخصص الآداب افتتاحية لشتمهم عندما عقدوا مؤتمرا ثقافيا في بلدهم، أعني في مدينة أربيل في كردستان؟

قد يقول د. سماح إدريس: لا أنا لم أشتم المثقفين العراقيين. أنا قلت أن منظم المهرجان فخري كريم سرق "أموال الحزب الشيوعي، أموال الفقراء والطلاب وعائلات الشهداء وأموال مجلة النهج ودار المدى"، وأنا (هكذا سيقول، أيضا) تحدثت عن "صلات بعض "الشيوعيين" (المزدوجتين من إدريس) العراقيين القدامى/ الجدد بمخابرات صدام نفسه في الستينيات والسبعينيات، فضلا عن المخابرات العربية والأميركية والبريطانية".

شخصيا، لست مطلعا على تاريخ وسيرة وحياة الأستاذ فخري كريم. ولهذا سأتركك، يا سماحة الدكتور سماح (بالمناسبة، هذه المرة الأولى التي عرفناك فيها مطلعا عن كثب على أراشيف كل هذه المخابرات، بعد أن عرفناك سابقا ناشرا ومثقفا)، مع فخري كريم. عضه أنا شئت. كل من لحمه وأشرب من دمه حتى يتبين لك الخيط الأحمر الشيوعي في داخله من الخيط الأخضر الدولاري. لكن عليك، في هذه الحال، أن تستعد للوقوف أمام القضاء. فما تقوله بحق الرجل (ها أنت تجبرنا ونحن في أرذل العمر على ممارسة مهنة ماسح الجوخ) لا يدخل تحت باب مقارعة الحجة بالحجة والبينة بأختها والفكرة بمثلها، إنما يتعلق بتهم القذف والتشهير.

شخص يتهمه آخر بسرقة المال، فما الذي يتوجب عليه أن يفعل. ليس أمامه إما أن يشهر سيفه ويغمده في جسد المتهم، فتسيل الدماء ويسلم الشرف الرفيع من الأذى. أو يسكت عن التهمة فتثبت عليه. أو، وهذا التصرف المتحضر بعينه، يرفع دعوى قضائية ضده وينتظر ما سينطق به القانون، وهذا ما فعله الأستاذ فخري كريم.

إما صلات بعض الشيوعيين القدامى/ الجدد بالمخابرات التي ذكرتها، فإذا لن يقاضيك الشيوعيون العراقيون، فسأفعل أنا وحدي، نيابة عن ألوف مؤلفة من عراقيين بسطاء مثلي. نعم، سأقيم ضدك دعوى قضائية، لسبب بسيط جدا هو، رغم أني لم أكن عضوا في الحزب الشيوعي، لكني قضيت عمري كله أصفق للشيوعيين العراقيين، لسبب أخلاقي هو، قناعتي في نزاهتهم وبعدهم عن خيانة وطنهم. وها أنا اكتشف الآن بفضل معلوماتك (شكرا لك يا دكتور) أني كنت أصفق لمجاميع من عملاء المخابرات البعثية والأمريكية والبريطانية، هكذا، دفعة واحدة.

يا سماحة الشيخ سماح، عندما تصدر فتوى فالمؤمل والمرتجى أن تدافع عنها بالشجاعة نفسها التي دفعتك لإصدارها. عليك أن تكمل فضلك وتذكر أسماء هولاء الشيوعيين العراقيين "عملاء المخابرات" واحدا واحدا، حتى ينالوا عقابهم العادل. فأنت تعرف أن عقوبة من يتجسس على بلده تسمى الخيانة العظمى، وتقود إذا ثبتت، صاحبها إلى المقصلة. وبما أنك تعرف كيف هي ظروف العراق هذه الأيام، وكيف أن الأخ يتربص بأخيه للإيقاع به، فأن ما أوردته في افتتاحيتك يعرض المجتمع العراقي إلى هزة جديدة، لم يعد لهذا المجتمع قدرة على تحملها، لأنك تعيد إلى أذهان العراقيين أجواء الانقلاب البعثي في ٨ شباط عام ١٩٦٣ عندما أصدر الأنقلابيون وقتذاك بيان رقم ١٣ الشهير، الذي يقضي بإعدام الناس على الظن والشبهة.

أملي كبير في أن تواصل شجاعتك التي اعتمدتها في توجيه الاتهام، في إثبات التهمة، أيضا، وأن لا تستقي معلوماتك من "شبكة الانترنيت التي تكاد تختنق بما يكتب"، كما ذكرت في افتتاحيتك. وإذا ظلت أدلتك مستقاة من شبكة الانترنيت، (وحكى) زيد، ونقل عمر، مثلما ورد في الافتتاحية، فأنا أخشى أن يجد القراء في ما تقول "خفة" ثقافية لا تليق بمكانة الآداب، ويعتبرون افتتاحية الآداب كلها، أشبه بكلام عجائز القرية: قالت الحاجة أم العبد، عن كنتها، عن جارتها، أن الصبية قمر الزمان حامل سفاحا.

لن أتوقف أمام اتهامات افتتاحية الآداب ضد السيدين بارزاني وطالباني، لسببين، أولهما أن هذين السيدين رئيسا دولة واقليم، وما تعلمت في حياتي أن أدافع عن حكام. والسبب الأخر هو، أن باب هذا الموضوع لو فتح فأنه سيكون أشبه بحفلات الزار التي نشاهدها في الفضائيات العربية: أنت خائن، فيرد الأخر: أخرس، أنت عميل، وينبري الأول: هذه أوراق تثبت عمالتك، فيرد الثاني: أخرس يا جبان هذه مستمسكات تجسسك....

لكن، مع ذلك، دعني أسألك: أين هو العمل الإبداعي (رواية، مجموعة قصصية، مسرحية، قطعة موسيقية، لوحة تشكيلية) الذي كتبه المثقفون العرب تضامنا مع مأساة الأكراد ؟ أنا لا أتحدث عن الأحزاب والمسؤولين في كردستان. ليذهبوا إلى حيث يشاءون. أتحدث عن فقراء الأكراد، عن بسطائهم، عن أولئك الذين دفنوا مع أطفالهم. ألم يتعرض هؤلاء إلى مجازر جماعية ؟ ألم نشاهد جثثهم على شاشات التلفزيون. أنا لا أتحدث عن الجهة المسؤولة عن قتلهم، إيران أو صدام حسين. أنا أتحدث عن بشر أبيدوا جماعيا. أليس من حقهم أن يعتبوا، ويحزنوا ويحتجوا ضدنا نحن "أشقائهم" العرب، وأن يكفروا حتى بالأخوة العربية الكردية ؟

على أي حال، وحتى نتجنب صراع الديكة، فسأمثل الآن دور الحكيم العاقل، وأقول مخاطبا د. سماح إدريس والمثقفين العرب الذين وقعوا عرائض تضامن معه:

يا جماعة: دعونا نبدأ بـ"لب" الموضوع في الافتتاحية كلها، عنيت "الوعي النقدي" في قولك: "إن وطننا، الوطن العربي، في مأساة لا لأننا ابتلينا بأنظمة مستبدة فحسب، وبأطماع امبريالية وصهيونية متعجرفة فقط، بل لأننا أيضا إزاء تراجع حاد في الوعي النقدي الحقيقي".

إن مأساتنا في العالم العربي لا تكمن (هكذا أظن) في "تراجع" الوعي النقدي الحقيقي، إنما تكمن، بالأحرى، في "غياب" الوعي النقدي الحقيقي.

"وعينا النقدي" ظل طوال الوقت، ما خلا شذرات متفرقة ويتيمة، يبنى ويتأسس على غرار فورة قنينة "الكوكا كولا": لمحة واحدة وينتهي كل شيء. فقد أصدرت دور النشر خلال القرن الماضي (وما دمنا نتحدث عن الآداب، فنقول أصدرت دار الآداب) آلاف الكتب، ونشرت مجلة الآداب آلاف المواد الثقافية. وكانت تلك المنشورات تدعو في غالبيتها العظمى، إلى تأسيس وبناء الوعي النقدي الحداثوي. فماذا حصل ؟ الذي حصل هو، أننا نسينا هذه الأيام كل تلك المنشورات، بل أن بعض مؤلفيها صاروا سدنة لفكر بن تيمية، ومتحمسين لأطروحات أسامة بن لادن وأبي مصعب الزرقاوي، فقط لأنهم ضد أميركا.

هل وجد بين مثقفينا، على كثرتهم، مثقفا "اقتحاميا"، أو مثقفا "ملعونا/ "MAUDIT"، بالمعنى الخاص أو العام، من طراز الحسن بن هانئ أبي نواس، أو أبي العلاء المعري، حتى لا نذكر مثقفين غربيين فنتهم بنسخ تجارب غيرنا، مثل د. هـ. لورنس، أو بودلير، أو رامبو، أو أوسكار وايلد أو جان جينيه، أو كتاب عصر التنوير الأوربي ؟ ألا تعتقد أن ما نجده عندنا هو المثقف المتصالح مع نفسه ومع الجمهور، المثقف المحمول على الأكتاف، المثقف الحالم بجائزة رضاء الشعب عنه. لم نجد من بين مثقفينا ذاك الذي دخل السجن بسبب مواقفه الإبداعية، بينما تكاد السجون العربية (والعراق على وجه التخصيص) تغص بالمثقفين الذين دخلوا السجون بسبب مواقفهم "السياسية". كل أدبنا العربي (لا بأس، أنا أبالغ) انعكاس لشعارات سياسية، يزول وينسى حالما تتبدل الشعارات السياسية.

يظهر شاعر ما، وقد يكون كبيرا، فعلا، من ناحية الصنعة، فنروح نحتفي به أي احتفاء. نطبع كتبه، وندعوه لكل مكان، ولا تكتب الصحف إلا عنه، ونحفظ شعره عن ظهر قلب، ويظل يشرب ويأكل على موائدنا، ونحمله كتعويذة. لكن، فجأة تختفي الظاهرة كلها، وننسى الشاعر وما كتب، وكأنه لم يظهر.

ثم يظهر موسيقي أو مغن فنحمله على الأكتاف، وندور به ومعه عواصمنا، وشتاتنا في المهاجر، ونظل "نردح" على إيقاع كلماته المنادية بحرق الأرض تحت أقدام الامبرياليين، ونحوله إلى طوطم. وفجأة، يذوب "حادي" عيسنا كما قطعة سكر في كوب حليب.

"هو" يذوب. لكننا، نحن الجماهير الهادرة من المحيط إلى الخليج، لا نذوب. نظل نفتش ونفتش عن "حاد" آخر لعيسنا حتى نعثر عليه، مهما كانت أفكاره ورؤياه للحياة، لأن صحراء حياتنا تظل موحشة ومخيفة، إذا غاب عنها الحداء.

يا جماعة: إلا تروون أن الحركات الإسلامية السياسية بأكثر أنواعها تطرفا ودموية، الناشطة هذه الأيام في عالمنا العربي، لم تتعب نفسها، لم تتعب نفسها أبدا، في إيجاد شعاراتها السياسية المرفوعة ضد الغرب. إنها لم تختلق هذه الشعارات، وإنما وجدتها جاهزة، أي أنها ورثتها من الأدب السياسي اليساري الحداثوي العربي، بل من الآداب العربية الحديثة. كل ما في الأمر، أن هذه الحركات أصبح هتافها كالتالي: يعيش المستضعفون ويسقط الغرب "الكافر" "باسم الله"، بينما كان الأدب السياسي اليساري الحداثوي يهتف: الموت للبرجوازية مصاصة دماء الشعوب ويسقط الغرب "الامبريالي" "بأسم الشعب".

الحركات الإسلامية المتطرفة العنيفة وجدت أمامها "عقلاً" عربياً مروضاً لا يعرف إلا التطرف، ولا يرى إلا لونين، الأسود والأبيض.

قارنوا بين بيانات هذه الحركات الإسلامية الأصولية المتطرفة، حاليا، وبين بيانات الحركات اليسارية العلمانية، سابقا. لن تجدوا فرقا كبيرا، إذا لم يكن تطابقا حرفيا: ثقة لا حد لها بالانتصار، خطاب محمل بالوعيد والقصاص، وبالغد المشرق.

القرن الماضي كله قضاه المثقفون الحداثويون وهم يطرحون قضايا يقينية لا يأتيها الباطل، وتحرم مناقشتها. فماذا كانت النتيجة ؟ خسائر بالجملة.

دعونا، إذن نكرس القرن الحالي لطرح أسئلة.

دعونا نسأل: كيف ولماذا يتقاتل الحماسويون والفتحاويون، بالسلاح الأبيض والأحمر والأسود، أي سلاح التسقيط، وبعنف لم تشهده ربما جميع الحروب العربية الإسرائيلية ؟ لماذا دخلت "قضية العرب الكبرى" إلى هذا المستنقع ؟

لماذا وكيف يخرج الجزائريون بمئات الآلاف وهم يهتفون للرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك عندما زارهم في بلدهم: شيراك رئيسنا، شيراك رئيسنا ؟ لماذا فقدت الجزائر، إذن، مليون شهيد ؟

لماذا وكيف ينشغل عالمنا العربي بفتاوى تتعلق برضاعة الكبير، وشرب البول ؟

لماذا أقدمت ٣٥٨ من نساء منطقة كردستان العراق على حرق أنفسهن، كما ذكرت افتتاحية مجلة الآداب؟

لماذا وكيف يظهر، في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، شخص عراقي مغمور ويدعي أنه قريب الإمام المهدي فيضم مئات من الناس إلى صفوفه ويقاتلون تأييدا له حتى الرمق الأخير ؟

لماذا وكيف دخلت القوات الأميركية العراق دون أن تطلق رصاصة واحدة ؟

كيف ولماذا وضع رجال "المقاومة" العراقية السلاح جانبا واصطفوا مع القوات الأميركية ؟

لماذا تساقطت الدموع كالشلالات حزنا على صدام حسين وهو القائل (بالحرف الواحد): لن تتحرك شعرة واحدة في رأسي حتى لو قطعت رؤوس آلاف من أعداء الثورة والحزب ؟

لماذا تظل دولنا العربية تحكم من قبل رؤساء استولوا على السلطة بانقلابات عسكرية منذ أكثر من نصف قرن ؟

أظن هذا هو الباب الصحيح الذي يتوجب أن ندخل منه لكي نناقش ما ذكرته افتتاحية الآداب "الوعي النقدي الحقيقي".

نعم، من هذا الباب، وليس من باب حدثني فلان عن فلان أنه قال...

ختاما، دعني يا أيها الأستاذ الفاضل د. سماح إدريس، أشد على يديك معزيا بوفاة والدك ووالد الآداب العربية، المغفور له د. سهيل إدريس، الذي عرفت برحيله بعد الانتهاء من كتابة هذه السطور، متمنيا لك ولعائلتك الكريمة الصبر والسلوان.

متى يخرج العراق من السلطة للدولة؟

فاضل السلطاني

بالرغم من الانجازات الهائلة لثورة، أو "هزة"، الرابع عشر من تموز، كما كان يسميها علي الوردي، فإن سقطتها الكبرى، وسقطتنا جميعاً منذ خمسين سنة، هي إننا أخرجنا العراق من إطار الدولة إلى نطاق السلطة العسكرية. ومنذ تلك النقطة بالذات بدأ التصدع العراقي، ليكتمل مع مجيء البعث الثاني عام ١٩٦٨، حين أخرج السلطة ذاتها من بيت الحزب، ليدخلها بيت الطاعة العائلي، موجهاً طعنته الكبرى لما تبقى من هياكل للدولة العراقية.

وحين نقول الدولة، لا نعني سوى مؤسسات المجتمع المدني، الوسيطة بين الفرد والسياسة، وبين المواطن والسلطة، والتي من دونها لا توجد مجتمعات مدنية، وبالتالي لا توجد دولة، بل سلطة ذات لسان واحد، ونطاق عسكري أو مدني واحد.

وللأسف، فإن البنى الإجتماعية والسياسية والثقافية، والمنظومات الفكرية التي أنتجت انعكاساتها الكارثية على المجتمع العراقي لاتزال تفعل فعلها بالوتيرة نفسها، التي قد يعتريها الفتور هنا أو هناك، في هذه الفترة أو تلك، لكنها سرعان ما تواصل دورانها، وكأن شيئاً لم يكن. ولعل ما يصطرع الآن في الواقع العراقي أحدث مثال على إنتاج وإعادة إنتاج الذهنية التي لا تريد أن تتعلم شيئاً، أو إنها عصية على التعلم، وإن تبدل الديكور، وغيرت الأشياء أسماءها.

وأبرز أعداء مثل هذه الذهنية، وهي ليست مقتصرة على العراق، وإنما في عموم الوطن العربي، هي عملية التحديث التي تخشاها أية سلطة، وتحاربها بما كل ما تملك من ترسانة ثقافية وإعلامية متخلفة وأجهزة أمنية لأنها تشكل الخطر الأكبر على وجودها، والوحيدة القادرة على تعريتها وفضح تخلفها.

السلطة ، مهما كانت تسميتها ، تبقى سيدة مخدومة ، علينا جميعاً أن نهيىء لها مائدتها الشهية ، طوعاً أو كرهاً ، بينما الدولة هي خادم للجميع ، "خادم اجتماعي.بهذا المعنى ، نحن لم نملك دولة بعد بمعناها الحديث. ولا توجد دلائل توحي بأننا سنملك مثل هذه الدولة في المستقبل المنظور. الأمر يحتاج إلى انقلاب هائل في مفاهيمنا عن السلطة ، باعتبارها غنيمة ، والوطن باعتباره ملكية خاصة مستحقة لمن يستولي على هذه الغنيمة سواء أكان ذلك عن طريق دبابة أو صندوق اقتراع ، فالأمر سيان مادامت الذهنية هي نفسها جوهرياً.

صحيح إن بعض هذه السلطات أدخل عملية التحديث، لكن هذه العملية لم تتجاوز الخطوط الأفقية التي حددها هذا البعض. وكان تجاوزها يعني نشوء حركة حداثة بمعناها الحقيقي، أي إزاحة اجتماعية واقتصادية وثقافية كبرى، وهو ما يشكل الخطر الأكبر على تلك السلطات التي احتفظت، ولا تزال، على ديمومتها نتيجة لغلقها كل مسارب الحداثة الحقيقية. وتجربة حزب البعث، الحزب المؤدلج الوحيد الذي قفز إلى السلطة أكثر من مرة، وفي أكثر من بلد عربي، تقدم لنا درساً نموذجياً في هذا المجال. فبقدر ما حقق هذا الحزب من عمليات بدت تحديثية بعد مجيئه الثاني في العراق (إلى الدرجة التي قارنها البعض مع ما حققه الشاه في إيران ما قبل الخمينية)، بقدر ما أجهض، على المستوى الاجتماعي والحقوقي، مؤسسات المجتمع المدني التي لم تكد تولد حتى وئدت، مما أوقعه في ازدواج قاتل أودى به هو نفسه في نهاية المطاف.

السلطة، مهما كانت تسميتها، تبقى سيدة مخدومة، علينا جميعاً أن نهيء لها مائدتها الشهية، طوعاً أو كرهاً، بينما الدولة هي خادم للجميع، "خادم اجتماعي.بهذا المعنى، نحن لم نملك دولة بعد بمعناها الحديث. ولا توجد دلائل توحي بأننا سنملك مثل هذه الدولة في المستقبل المنظور.

الأمر يحتاج إلى انقلاب هائل في مفاهيمنا عن السلطة، باعتبارها غنيمة، والوطن باعتباره ملكية خاصة مستحقة لمن يستولي على هذه الغنيمة سواء أكان ذلك عن طريق دبابة أو صندوق اقتراع، فالأمر سيان مادامت الذهنية هي نفسها جوهرياً.

وبالطبع، يصبح الحديث عن إمكانية حصول تقدم في أي منحى من الحياة نوعاً من العبث إذا لم يحل مفهوم الدولة محل مفهوم السلطة، وأن يتجسد ذلك عملياً في ممارساتنا السياسية والاجتماعية، المستمدة شرعيتها من شخصية الدولة، وليس من عصا وسحر السلطة التي تحول الملك إلى مهرج، والمهرج إلى ملك، كما قال شكسبير مرة عن قوة المال وسحره